

التفكيكية : قراءة ثائرة في النقد الأدبي المعاصر

شمناد ن.

أستاذ مساعد، قسم العربية، كلية الجامعة، ترونتبرام، كيرلا

Email: shamnadmail@gmail.com

المقدمة

فإن واقع الدراسات النقدية العربية مشغول بمدارس النقد ذات المنشأ الغربي من ظاهراتية¹ phenomenology وبنويوية² structuralism وتفكيكية deconstruction وما بعد الحداثة³ post modernism. وسواء كان دافع الانشغال الخوف من تبعية ثقافية تطرق الأبواب مترافقة مع تبعية اقتصادية وسياسية وإعلامية تعطي مشروعية لهذه المخاوف، أو كان دافعه الرغبة في اللحاق بقطار يتحرك

¹ الظاهراتية أو الفينومينولوجيا phenomenology هي مدرسة فلسفية تعتمد على الخبرة الحسية للظواهر كنقطة بداية (أي ما تمثله هذه الظاهرة في خبرتنا الواعية) ثم تتطرق من هذه الخبرة لتحليل الظاهرة وأساس معرفتنا بها. يمكن أن نرصد بداياتها مع هيغل كما يعتبر مؤسس هذه المدرسة إدموند هوسرل. وتقوم هذه المدرسة الفلسفية على العلاقة الديالكتية بين الفكرة والواقع.

² البنويوية Structuralism اتجاه نشأ في فرنسا في الستينات من القرن العشرين، وكتب فيه، تنظيراً وتطبيقاً، عدد كبير من البنويبيين في شتى الحقول العلمية، بدءاً بالأدب وانتهاءً بالنقد الأدبي، ومروراً بالألسنية والأنثروبولوجيا وعلم النفس والماركسية والأستيمولوجيا، وحتى الرياضيات. البنويوية هي محاولة علمية منهجية لدراسة الظواهر من وجهة نظر البنية والنموذج والبناء الصوري والعلاقات الباطنية المكونة لموضوع ما. إن البنويوية طريقة لتحليل الفنون الثقافية. ويفترض النقد البنويوي أن النقد هو امتداد لعملية القراءة، وأن الناقد هو قارئ نموذجي يتمتع بقدرة فائقة على التعبير.

³ ما بعد الحداثة Post Modernism اصطلاح عام يستعمل للدلالة على التغيرات والتتميمات والعيادات التي أصابت الفنون والفلسفة والأدب والعمارة منذ الخمسينات للقرن العشرين. وهي محاولة لإعادة التفكير في المنظر الثقافي بالنظرات الإنسانية. ما بعد الحداثة ليست حداثة لأنها رد فعل للحداثة. جاءت ما بعد الحداثة لتقدم رؤية مزدوجة حول طائفة من القضايا: منها تدمير القيم المتوارثة، والمظاهر التقليدية، وتدمير المعنى للبقاء في دوامة لعبة الدوال. إنها حرب ضد كل المطلقات والقيم، ولا تخضع لقانون أو دستور أو معيار كلي. ومن أهم سمات ما بعد الحداثة هي الانعكاسية الذاتية، لم تؤمن ما بعد الحداثة بالفواصل، والفوارق الثقافية المعرفية.

بالفعل وفي رحلته محطات عديدة، فإن من المفيد إدارة نوع من الحوار الإيجابي حول هذه الأفكار والمدارس النقدية. هذا، وتحاول هذه الدراسة أن تسلط الضوء على مدرسة فلسفية نقدية معاصرة: التفكيكية، كما تحاول أن تجيب لبعض أسئلة هامة حول جوانب إيجابية وسلبية لفلسفة التفكيكية. لا تمكن الإجابة عن هذه الأسئلة إلا بعد فهم مفاهيم التفكيكية الأساسية وتقويمها، ولعل أفضل موضع ننطلق منه لتحقيق الغاية هو كتاب "في علم الكتابة" Of Grammatology¹ الذي يعد لسان التفكيكية، العمل البارز الذي أنجزه الفيلسوف والناقد الفرنسي جاك دريدا² Jacques Derrida (1930-2004م)، واضع نظرية التفكيكية.

التفكيكية Deconstruction ◦ απομυθοποίηση

تعد التفكيكية (تسريح النص)³ في اصطلاح د/عبد الله الغدّامي⁴ رائد التفكيكية في الوطن العربي¹ أهم حركة ما بعد البنيوية² Post-Structuralism في النقد

¹ عرف جاك دريدا هذا المصطلح في كتابه "في الغراماتولوجيا" [في علم الكتابة] بأنه دراسة للأدب ولحروف الهجاء ول مقاطع الكلمات والقراءة والكتابة.

² جاك دريدا Jacques Derrida (1930-2004م) فيلسوف وناقد فرنسي من مواليد الجزائر، صاحب نظرية التفكيك. اشتهر دريدا بأنه كان من أنصار التيار الاجتماعي الديمقراطي ومناهضا وتمسكا بالجمهورية ومناصرا للمرأة ومعاديا لحكم الإعدام ووريث عصر التنوير. وله كثير من المؤلفات المشهورة في الفرنسية، وترجمت أكثرها إلى اللغات العالمية المختلفة، منها: في علم الكتابة، والكتابة والاختلاف، والكلام والظواهر، والحق في الفلسفة، وسياسة الصداقة، ومقاومة التحليل النفسي، ووداعا لإمانئيل ليغيناس، وغيرها. كانت حياته تدور حول البحث والتعليم والنشر والمحاضرات، زار دريدا كثيرا من البلاد، منها الهند، وألقى محاضراته أمام الدارسين والطلبة عن الفلسفة والفن والأدب والنقد، كما خاض دريدا في كفاح طويل ضد التمييز العنصري، وقام بالدعوة لحرية التعبير لما أصدر آية الله الخميني في إيران فتواه ضد الكاتب الهندي سلمان رشدي لما أصدر كتابه "الآيات الشيطانية" The Satanic Versus.

³ غدّامي، عبد الله، (2006)، الخطيئة والتفكير من البنيوية إلى التشريحية، ط 6،

المغرب: المركز الثقافي العربي، ص: 49.

⁴ عبد الله الغدّامي (و. 1946م) ناقد حدّاثي من السعودية. نال الدكتوراه في الأدب والنقد من جامعة أكستر بإنجلترا عام 1978، أستاذ النقد في جامعة الملك سعود بالرياض،

الأدبي فضلا عن كونها الحركة الأكثر إثارة للجدل أيضا. التفكيكية هي مشروع لقراءة النص³. وهي استراتيجية منهجية تستهدف تقويض النص الأدبي من الداخل وخلخلة بنائه الهرمي لاستكشاف دلالاته الهاربة والمخفية تحت ستائر إشارته الغامضة. وربما لا توجد نظرية في النقد الأدبي التي أثارت موجات من الإعجاب وخلقت حالة من النفور والامتعاض مثلما فعلت التفكيكية في السنوات الأخيرة. نجد أن الكثير من النقاد الذين ينصون تحت خانة النقد التقليدي يبدون سخطهم من التفكيكية التي يعدوها سخيفا وشريرا ومدمرا. ولم يخلو أي مركز فكري في أوروبا وأمريكا وبلاد العرب من الجدل في قيمة هذه النظرية الجديدة في النقد⁴.

فالتفكيكية تستخدم للدلالة على نمط من قراءة النصوص بنسف ادعائها المتضمن أنها تمتلك أساسا كافيا. إن مصطلح التفكيكية يعتمد على

وفي جامعة الملك عبد العزيز في جدة. ظهر في الوطن العربي في منتصف الثمانينات، بكتابه الأول (الخطيئة والتكفير) في 1985، فأحدث ضجة كبرى في صفوف النقاد العرب: لأنه تبنى فيه أحدث منهجين نقديين آنذاك، وهما: البنيوية والتشريحية أو (التفكيكية)، نشر حتى عام 2000 أكثر من خمسة عشر كتابا نقديا كلها في التطبيق الذي غلب عليه أكثر من التنظير النقدي.

¹ عبد الرحمن بن إسماعيل السماعيل (تحرير)، الغدامي الناقد: قراءات في مشروع الغدامي النقدي، كتاب الرياض، عدد 97-98، ديسمبر 2001، ص: 17

² لما شاعت شكوك حول ضعف الكفاية المنهجية للبنيوية في شتى حقولها المعرفية، ظهرت ما بعد البنيوية Post Structuralism. يقع أصل تفكير ما بعد البنيوية في اعتقاده بصفات غير متساوية وغير متناسبة للغة. التفكيكية هي مظهر رئيسي² استعملتها نظرية ما بعد البنيوية في النقد الأدبي. تجاوزت ما بعد البنيوية غالبا مع الوعي التاريخي والثقافة الأخلاقية.

3. Raveendran, P.P., (1999), Adhunikandaram: Vicharam, Vayana, Thrissur: Current Books, P 24.

⁴ فمن ناحية نجد أن بعض أعمدة النقد مثل ج. هيليس ميلر J. Hillis Miller و بول دي مان Paul de Man وجيفري هارتمن Geoffrey Hartman و هارولد بلوم Harold Bloom، هم رواد التفكيك على الصعيدين النظري والتطبيقي على الرغم من تباين أسلوبهم وحماسهم، ومن ناحية أخرى نجد نقادا كثيرين للتفكيكية، ومن أشهر منتقدي التفكيكية: ميشيل فيكو Michael Foucault، إدوارد سعيد Edward Said، وجون إليس John Ellis.

الهرمنيوطيقا Hermeneutics¹ الذي يمارس القارئ من خلاله تفكيك النص، فالقارئ يحدث عنده المعنى ويُحدثه، ومن دون هذا الدور لا يوجد نص أو لغة أو علامة أو مؤلف. ومن هنا فإن أيّ مناقشة للتفكيكية لا بد أن تبدأ بالقارئ، وتجربة القارئ التي لا يوجد قبل حدوثها شيء. فهو يفكك النصّ ويعيد بناءه على وفق آليات تفكيره. التفكيكية هي محاولة لتفكيك الفكر النقدي للتراث الفلسفي المتداول ولطرح سيطرة المفهوم والمفهمة للنقاش، خصوصا سيطرة نظام هيغل² Hegel الفلسفي والنظام اللغوي³ لسوسور⁴ Ferdinand de Saussure.

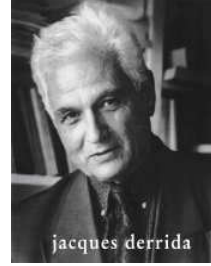
¹ التفسيرية أو الهرمنتيكية Hermeneutics هي المدرسة الفلسفية التي تشير لتطور دراسة نظريات تفسير Interpretation ودراسة وفهم النصوص Text. في الدراسات الدينية يستخدم مصطلح هرمنتيكية للدلالة على دراسة وتفسير النصوص الدينية. هذه الكلمة لها من التراث الدلالي الكثير والكثير. فبينما تشير كلمة hermeneutics إلى الفرع من علم الفلسفة الذي يدرس مبادئ التأويل والادراك، فإن الكلمة ذاتها تحمل اسم نظرية معروفة في الميثودولوجيا (ما يُسمى بعلم المنهج) في أسلوب تأويل النصوص المقدسة وتفسيرها - بالأخص التوراة والإنجيل.

² جورج فردريك هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770-1831) فيلسوف ألماني، الذي يعتبر أحد أهم الفلاسفة الألمان حيث يعتبر أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. ظهرت الفلسفة الحديثة، والثقافة، والمجتمع في نظر هيغل عناصر مشحونة بالتناقضات والتوترات، كما هي الحال بالنسبة للتناقضات بين الموضوع وجسم المعرفة، بين العقل والطبيعة، بين الذات والآخر، بين الحرية والسلطة، بين المعرفة والإيمان، وأخيرا بين التنوير والرومانسية.

³ زيماء، بيير ف.، (1996)، *La Déconstruction: Une critique* (التفكيكية: دراسة نقدية)، تعريب: أسامة الحاج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص: 9

⁴ عالم لغوي سويسري ولد في جنيف عام 1857 ومات فيها عام 1913، وبعد موته بثلاث سنوات قام طلبته بجمع محاضراته في علم اللغة وطبعوها تحت عنوان (محاضرات في الألسنية العامة) وأصبح لهذه المحاضرات تأثير بالغ على الفكر الألسني والنقد الأدبي.

ويعدّ الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا Jacques Derrida الاسم الأكثر اقترانا بالتفكيكية، فقد طرح آراءه في ثلاثة كتب نشرت في سنة 1967¹، وهي "في علم الكتابة" Of Grammatology و"الكتابة والاختلاف" Writing and Difference و"الكلام والظواهر" Speech and Phenomena. والمفهوم العام لهذه الكتب يدور على نفي التمرکز المتمثل في الثقافة الغربية. ولذلك يبحث دريدا عن المنطوق أو أفضلية الكلام على الحضور سعياً منه في قلب المعنى وإسقاطه من اللغة. تمثل فرنسا المهد الأول للتفكيكية، ثم انتقلت التفكيكية إلى أمريكا عبر رحلة قادها دريدا الذي ألقى محاضراته في جامعة ييل² وجامعة هوبكنز³ John Hopkins، هذه الأخيرة شهدت ميلاد المؤتمر الأول للتفكيكية عام 1966 لتسود بذلك التفكيكية الساحة النقدية الأمريكية في السبعينات للقرن العشرين⁴، ويتأثر بها العديد من المؤلفين والنقاد لتهمين بذلك أفكار دريدا على الساحة الأدبية وخاصة على النقاد الرومانسيين والناقمين على موجة النقد الجديد New Criticism⁵. لقد خلفت كتابات دريدا تأثيراً واسعاً في الجامعات الأمريكية



- 1 عناني، محمد، (1997)، المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنجليزي/عربي، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط 2، ص 132.
- 2 جامعة ييل Yale University هي جامعة خاصة تقع في كنتيكن، تأسست عام 1701م، تعتبر ثالث أقدم معهد للتعليم العالي في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعمل بها 19 حائزاً على جائزة نوبل، وتتكون من 12 كلية. ويعتبر الحصول على شهادة من هذه الجامعة بمثابة المفتاح السحري للثراء والمناصب الحكومية الحساسة.
- 3 جامعة جونز هوبكينز جامعة خاصة، مقرها في بالتيمور بولاية ماريلاند بالولايات المتحدة. افتتحت الجامعة في 1876 بهدف أساسي وهو تنمية الأبحاث وتشجيع التلاميذ اللذين عن طريق اجتهادهم سيقومون بتطوير العلوم المرجوة
- 4 عزام، محمد، (2003)، تحليل الخطاب في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ص: 125
- 5 النقد الجديد New Criticism مدرسة أدبية نقدية ظهرت في أمريكا في القرن العشرين، كان أصحاب النقد الجديد يركزون تركيزاً شديداً على اللغة والصور البلاغية والتوترات العاطفية والعقلية، وبخاصة في الشعر، في محاولة لاستكناه الجمال.

خاصة مجموعة نقاد بيل Yale، فمثلت كتابات بول دي مان¹ Paul de Man - مناصر التفكيكية الأول - الأرضية الصلبة التي انطلقت منها انتقادات النقاد الجدد خاصة من خلال كتابه "العمى والبصيرة" الذي صدر عام 1971، ويرى فيه دي مان "أن النقاد يصلون إلى البصيرة النقدية من خلال العمى النقدي".²

إن عمل دريدا عمل مفكك³ De-constructer لكونه قد أعاد النظر في المفاهيم التي تأسس عليها الخطاب الغربي الذي لا يعدو أن يكون خطابا ميتافيزيقيا Metaphysics، وليس هناك بديل يقدمه دريدا. ولهذا تقود التفكيكية، إذن، هجوما ضاربا وحربا شعواء على الميتافيزيقيا في قراءة النصوص: فلسفية كانت أو غير فلسفية⁴. ويقصد بالميتافيزيقيا التي تستهدفها التفكيكية في هجومها كل فكرة ثابتة وساكنة مجتثة من أصولها الموضوعية، وشروطها التاريخية⁵. ويرى دريدا أن الفكر الغربي قائم على ثنائية ضدية عدائية يتأسس عليها ولا يوجد إلا بها مثل: دال/مدلول، خارج/داخل، الواقع/الحلم، الخير/الشر، الشرق/الغرب، المذكر/المؤنث، العقل/العاطفة، الجسد/الروح، الذات/الأخر، المشافهة/الكتابة،.... الخ⁶. لما تفضل الميتافيزيقيا أحد الحدين على الآخر، تسعى التفكيكية إلى كسر هذه الثنائيات الميتافيزيقية. ولهذا تتسم

¹ يعتبر بول دي مان Paul de Man ثاني أعمدة المدرسة التفكيكية، على حين يعتبر دريدا العمود الأول، وكل هؤلاء مختلفون عن بعضهم البعض، فالأول كان يهتم إلى حد كبير بالموضوعات السياسية، على حين كان اهتمام الثاني بالنصوص والنقد الأدبي قال الباحث: ريتشارد دورتي - من جامعة فيرجينيا: لولا انتماء بول دي مان إلى هذه المدرسة التفكيكية لما أمكن لهذه المدرسة أن تنتشر.

² سيلدن، رامن، (1996)، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة سعيد الغانمي، ط 1، المغرب: دار فارس للنشر والتوزيع، ص: 142.

³ <http://www.alfaseeh.com/vb/showthread.php?t=25105>

⁴ Sivaprasad, (2009), Navasahithya Darshanangal: Sidhanthavum Prayogavum, Thiruvananthapuram: India Books, p 55

⁵ جيمسون، فريديك، (1972)، سجن اللغة، برنستون: مطبعة جامعة برنستون،

ص 176

⁶ زيماء، بيير ف..، ص: 71

التفكيكية بطابع سياسي فضلا عن كونها إستراتيجية فلسفية¹. يقول د/ غسان السيد²: إن خطاب دريدا يريد أن يقطع كل الجسور مع الماضي، ومع أي نقطة إحالة مرجعية ثابتة. جاء هذا الخطاب في الأساس ليفضح الخطاب الغربي الذي لم يستطع في مراحلها كلها التخلص من مركزية حادة تتحكم في الوعي الجمالي والقيمي للإنسان³. تنحو التفكيكية إلى القول باستحالة الوصول إلى فهم متكامل أو على الأقل متماسك للنص أيا كان، فعملية القراءة والتفسير هي عملية اصطناعية يقوم بها القارئ، وبالتالي يستحيل وجود نص رسالة واحدة متماسكة ومتجانسة. إن معنى النص منتشر فيه ومبعثر فيه كبدور تنثر في كل الاتجاهات ومن ثم لا يمكن الإمساك به⁴.

المفاهيم النقدية للتفكيكية

ويمكن الحديث عن أهم المفاهيم النقدية التي قدمها دريدا Derrida لمشروعه النقدي التفكيكي من خلال النقاط الآتية:

¹ عزام، محمد، ص: 75

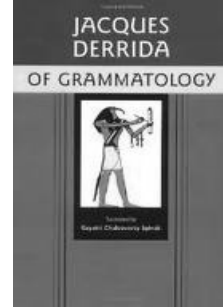
² د/ غسان السيد كاتب سوري من مواليد 1956م، من أعضاء اتحاد الكتاب العرب في سورية والوطن العربي، يعمل أستاذا جامعيا في جامعة دمشق. من مؤلفاته: مقدمة في المناهج النقدية للتحليل الأدبي.

³ السيد، غسان، التفكيكية والنقد العربي الحديث، مجلة الموقف الأدبي - مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد 426، تشرين الأول 2006

⁴ المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - نموذج تفسيري جديد، الطبعة الأولى، 1999، المجلد الخامس، مصر: دار الشروق، ص 437

1. علم الكتابة Grammarology :

لقد استند مفهوم الكتابة الذي صاغه دريدا إلى ثلاث كلمات معقدة جدا، هي: الاختلاف difference والأثر trace والكتابة الأولى arche-writing¹. إن أبرز جزء في نظرية دريدا هو أنه ينقل بحثه من اللغة إلى الكتابة، النص المكتوب أو المطبوع، وأنه يتصور النص بطريقة محددة غير اعتيادية. كانت الفلسفات الميتافيزيقية الغربية والشرقية نسبت مكانة ثانوية إلى الكلمة المكتوبة ومكانة رئيسة للكلمة المنطوقة. ونلاحظ في التفكيكية عنصر التمرکز حول الكتابة graphocentrism². ويمكن القول أن المقصود بالتمرکز حول الكتابة هو انتقال الأهمية من الكلام إلى الكتابة، وهو يمثل قلبا للمفهوم التقليدي القائل بأولوية الكلام أو الكلمة المنطوقة على الكتابة أو الكلمة المكتوبة³.



وقد بين دريدا أن الزعم للسانيات الحديثة والبنوية عن مفهوم الدال والمدلول هو أيضا خداع لأن مفهوم الدال والمدلول في اللغة الذي جاءنا من اللسانيات والبنوية هو صورة أخرى لمفهوم الكلام والكتابة التقليدي⁴. يعدّ مفهوم علم الكتابة Grammarology نقدا لثنائية سوسور Saussure (الدال (الصورة الصوتية) والمدلول (المفهوم))، ورؤيته لدور العلامة وفعاليتها في بناء النص، فالدال عند سوسور هو تشكل سمعي وبصري⁵،

¹ الكتابة الأولى arche-writing: التعبير مستقى من فرويد Freud، وقد استعمله للإشارة إلى اللاوعي. وقد استعمل دريدا هذا المفهوم، مشيرا إلى فرويد مرّات عدة في كتابه "الكتابة والاختلاف". وهو يقول: "إن الكتابة تعد استكمالا للإدراك حتى قبل أن يعي الإدراك نفسه. والذاكرة أو الكتابة هي فاتحة عملية وعي الإدراك بذاته.

² Achuthan, M., (2006), Paschathya Sahithya Darshanam, Ed 2, Kottayam: DC Books, P 483

³ PP 57-58 Sivaprasad,

⁴ Derrida, Jack, (1994), Of Grammatology, Trans. Gayathri Chakravorthy Spivak, Delhi: Motilal Banarsidass, P 112

⁵ Anandan, K.N., (2003), Bhashashastratile Chomskian Viplavam, Thiruvananthapuram: Bhasha Institute, PP 46-51

وصورة لحمل الصوت، وقد عدّ دريدا ذلك تمركزاً حول الصوت، وصورة واهمة لحمل المعنى¹. وقد اقترح دريدا استبدال (العلامة) بمفهوم الأثر (Trace) بوصفه الحامل لسيمات الكتابة، ولنشاط الدال، وقد تحولت اللغة وفقاً لذلك من نظام للعلامات² - كما هي عند سوسور - إلى نظام للأثار - كما هي عند دريدا - وتعين تلك الآثار على ترسيخ مفهوم الكتابة، وتوسيع اختلافات المعنى المُتَّحَصِّل من نشاط دوالها، لذلك عدّ دريدا علم الكتابة "بأنه علم للاختلافات".

2. **الاختلاف/ الإرجاء** Différance : يشير مصطلح "الاختلاف/ الإرجاء" إلى السماح بتعدد التفسيرات انطلاقاً من وصف المعنى بالاستفاضة، وعدم الخضوع لحالة مستقرة، وبيبين (الاختلاف) منزلة النصية Textuality في إمكانيتها تزويد القارئ بسيل من الاحتمالات، وهذا الأمر يدفع القارئ إلى العيش داخل النص، والقيام بجولات مستمرة لتصيّد موضوعية المعنى الغائبة، وترويج المعنى - حسب دريدا - يخضع دائماً للاختلاف، والمعنى من خلال الاختلاف يخلق تعادلات مهمة بين صياغات الدوال والاطمئنان النسبي إلى اقتناص الدلالة. تحمل الكلمة الفرنسية différence معنى الاختلاف (في المكان) والإرجاء (في الزمان)³. ويرى دريدا أن المعنى يتولد من خلال اختلاف دال عن آخر، فكل دال متميز عن الدوال الأخرى ومع ذلك فهناك ترابط واتصال بينهما، وكل دال يتحدد معناه داخل شبكة العلاقات مع الدوال الأخرى، لكن معنى كل دال لا يوجد بشكل كامل في أية لحظة (فهو دائماً غائب رغم حضوره)، وهكذا difference عكس الحضور والغياب بل يسبقهما⁴.

¹ Achuthan, M., P 479

² Anandan, K.N, P 46

³ Sivaprasad, P 61

⁴ Cuddon, JA, (1999), Literary Terms and Literary Theory, London: Penguin Books, P 210

ويرى دريدا أن كل علامة تؤدي هذه الوظيفة المزدوجة: أي الاختلاف والتأجيل، ولهذا السبب تكون بنية العلامة مشترطة من قبل الاختلاف والتأجيل، وليس من خلال الدال والمدلول¹. ويمكن توضيح ما ذكره بالمثال الآتي: فنحن نميز بين كلمتي three وتعني "ثلاثة" و tree وتعني "شجرة" في الكلام والكتابة، فهما مختلفتان تماما وتكشfan عن هويتهما. ويعد هذا الاختلاف إحدى القوتين الموجودتين في كل علامة. أما القوة الأخرى في العلامة فهي قدرتها على الإرجاء، أي قابليتها على التأجيل. فعلى سبيل المثال إن كلمة "وردة" في قصيدة ما لا تبدأ بكشف المعنى إلا حينما ندرك أنها ليست تلك الوردة التي نراها في الواقع، بل أن لها معنى آخر، ذلك الشيء الذي ينبغي اكتشافه. ولهذا السبب فإن العلامة نصفها واف والنصف الآخر غير واف، وهذه الحقيقة ضرورية لبداية فهمنا إلا إنها غير كافية بسبب نقصها. ومثلما أكد سوسور فإن العلامة هي ليست "الدال + المدلول" بل العلامة هي "الاختلاف + الإرجاء". ويرى سوسور أن العلامة اتحاد في حين يراها دريدا اختلاف.

3. نقد التمركز Critique of centrality : ويقدم هذا المعطى من معطيات دريدا إمكانية كبيرة في فحص منظومة الخطاب الفلسفي الغربي عبر قرونه الممتدة زمنيا، ويكشف هذا المعطى في الوقت نفسه عن التأمل الفلسفي المتعالي، ويعمل على تمزيق أفنعتة بوصفها رواسب حجبت صورة الحقيقة. ويصر دريدا على أن لكل تركيب مركزا سواء كان تركيبا لسانيا أم غير لسانيا، فلسفيا أم غير فلسفي، وحمل التراكيب لمراكز محددة يعطي أهمية لحركة الدوال. وتوجه دريدا في هذا الإطار كان منصبا على نقد التمركز

¹ أبو هيف، عبد الله، (2000)، "النقد الأدبي العربي الجديد"، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ص 449.

بوصفه دلالة سلبية¹، ومدح المركز بوصفه العنصر المشع للدلالة، والنقطة التي ينبثق منها اختلاف المعنى².

4. **نظرية اللعب** Theory of play : ويشير مفهوم نظرية اللعب إلى تمجيد التفكيكية لصيغة (اللعب الحر free play) للكتابة، وتأكيد المعطى الثقافي للفكر والإدراك، وغياب المعرفة السطحية المباشرة، واستلهاً أفق واسع من المرجعيات الفكرية المماثلة، والفلسفية المعقدة، والنظم المخبوء، وطرائق التحليل الخاصة³.

5. **الأثر Trace** : فالعلم في نظر دريدا Derrida - مثله في ذلك مثل الدين والفلسفة الميتافيزيقية - يقيم نظامه على ما يسميه "الحضور" ومعناه التسليم بوجود نظام خارج اللغة يبرر الإحالة إلى الحقائق أو الحقيقة. فمفهوم الأثر في التفكيكية مرتبط بمفهوم الحضور الذاتي، ودريدا يرى في الأثر شيئاً يمحو المفهوم الميتافيزيقي للأثر وللحضور⁴. وهدف دريدا هو تفكيك الفلسفة وتفكيك تطلعاتها إلى إدراك الحضور، وفي مقابل التركيز على المقابلة بين الدال والمدلول (اللفظ والمعنى) عند سوسور Saussure يرفض دريدا أسبقية المدلول على الدال، لأن تصور سوسور كان يعني وجود مفاهيم "حاضرة" خارج الألفاظ⁵. فالعلامة سياقية contextual، وهي تخلق سراب المدلول. ولهذا السبب إن العلامة "أثر"، فهي ليست التمثيل المرئي أو الكتابي المحسوس للصورة الصوتية بل إنها الأثر الذي يصفه دريدا بأنه ليس طبيعياً.

إن ما هو كائن في العلامة يحرك الذهن باتجاه ما هو غير كائن فيها، ولهذا السبب فإن ما هو موجود في العلامة يحمل أثر ما هو غير موجود فيها.

¹ عزام، محمد، ص: 136

² Royle, Nicholas, deconstructions, Palgrave, NY, (2000), p 6.

³ Sivaprasad, P 62

⁴ Achuthan, M, P 480

⁵ <http://www.alfaseeh.com/vb/showthread.php?t=25105>

تقول¹ Gayatri Chakravorty Spivak الكتابة لدريدا هي اسم البنية التي يسكنها الأثر دائماً². الكتابة، عند دريدا، إنها النقش inscription عموماً، سواء كان ذلك حرفياً أم غير حرفي حتى وإن كان ما تم توزيعه في الفراغ غريباً عن نظام الصوت³. بهذا المعنى يمكن أن نعد التصوير السينمائي والرقص والموسيقى والنحت جميعها كتابة. و(الأثر) هو القيمة الجمالية التي تجري وراءها كل النصوص، ويتصيدها كل قراء الأدب⁴.

6. **الحضور والغياب Presence and Absence** : أما مفهوم الحضور والغياب فيشكل تنويجاً نقدياً للمفاهيم السابقة، لأنه يمثل الثمرة المعرفية للتحليل التفكيكي. إنَّ جميع إجراءات المسيرة النقدية للتفكيك تخضع لحضور الدوال وتغييب المدلول. وقد انطلق دريدا من خلال هذه الثنائية لنقد توجه الخطاب الفلسفي الغربي، وتقويض أسسه من خلال كشف تناقضاته واللعب بأنظمتها وممارساتها، وتحويل معادلته المعرفية من ميتافيزيقيا الحضور إلى غياب المعنى واختلافه وتعدده.

التفكيكية في النقد الأدبي

يبرز تأثير فلسفة دريدا Derrida في النقد الأدبي عند نقاد جامعة ييل Yale في أمريكا وبخاصة بول دي مان. ويستند دي مان Paul de Man على قول دريدا بأن الأدب يمكن اعتباره حركة تفكيكية ذاتية للنص، إذ يقدم معنى ثم يقوّضه في آن واحد، فالأدب أقرب ما يكون إلى تجسيد مبدأ الاختلاف⁵. وهو يحتفل بوظيفة الدلالة وفي الوقت نفسه بحرية عمل الكلمات في نطاق الطاقات

¹ جايتري شكرورتي سفيواك Gayatri Chakravorty Spivak (و. 1942م) ناقدة أدبية هندية ولدت في كلكتا. وصفت سفيواك نفسها منظرية ماركسية نسوية تفكيكية، اشتهرت بأثارها في مجال ما بعد الاستعمار post colonialism ، وترجمة كتاب of grammatology لجاك دريدا، وهي تعمل الآن أستاذة في جامعة كولمبيا، الولايات المتحدة.

² Of Grammatology, P xxxix

³ Derrida, Of Grammatology, P 9

⁴ عزام، محمد، ص: 126

⁵ زيماء، بيير ف.، ص: 112

الاستعارية وألوان المجاز والخيال دون الجمع بين المتناقضات فلا يصل أبداً إلى الوحدة¹. وأهم ما يلاحظ هنا هو أن هذا التصور للأدب باعتباره نصوصاً متداخلة يفتح بعضها على بعض ولا يجد النص منها حدوداً تمنعه من تجاوز ذاته بدلاً من التصور القائم على وجود نص مستقل أو كتاب مغلق يناقض تعريف الأدب الذي جاء به النقد الجديد New Criticism باعتباره عملاً يتمتع بالوحدة العضوية. ترجع أهمية الأدب في ظل التفكيكية إلى طاقته على توسيع حدوده بهدم أطر الواقع المتعارف عليها، ومن ثم فهو يميظ اللثام عن طبيعتها التاريخية العابرة، فالنصوص الأدبية العظيمة دائماً تفكك معانيها الظاهرة سواء كان مؤلفوها على وعي بذلك أم لا. والأدب أقدر فنون القول على الكشف عن العملية اللغوية التي تمكن الإنسان بها من إدراك عالمه مؤقتاً وهو إدراك لا يمكن أن يصبح نهائياً أبداً.

لا يوجد شيء خارج النص :

تشكل هذه العبارة أساساً من أهم أسس النظرية التفكيكية وقد عبر دريدا عن ذلك بقوله: "لا يوجد شيء خارج النص"² *There is nothing outside the text* ومعنى ذلك رفض التاريخ الأدبي التقليدي ودراسات تقسيم العصور ورصد المصادر لأنها تبحث في مؤثرات غير لغوية وتبعد بالناقد عن عمل الاختلافات اللغوية³. ويعتبر التفكيكيون أن الغوص في الدلالات وتفاعلاتها واختلافاتها المتواصلة تعد معادلاً للكتابة، فمن حق كل عصر أن يعيد تفسير الماضي ويقدم تفسيره الذي يرسم طريق المستقبل، فالتفسيرات أو القرارات الخاطئة هي السبيل الوحيد لوضع أي تاريخ أدبي بالمعنى التفكيكي. ومن هنا

¹ عناني، محمد، (1997)، المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنجليزي/عربي، الطبعة الثانية، لونجمان: الشركة المصرية العالمية للنشر، ص 143 - 144.

² George, CJ (Ed.), *Adhunikandara Sahitya Sameepanangal*, Bookworm, Thrissur, (1996), p67

³ Sivaprasad, P 63

اتبع التفكيكيون في تطبيقاتهم القرائية على النصوص الأدبية التفكيك للمدلولات الوراثية المتمركزة في التفسيرات والقراءات النقدية السائدة، وطلبوا بقتل المؤلف¹ (المدلول) وتكفينه في اللاحضور، ومركزة الدال، تحت سلطة القارئ الذي يرث النص عن مؤلفه ليقوم بتفكيكه وتقويضه وإعادة كتابته من جديد. لذلك يرى رولان بارت² Roland Barthes - أحد نقاد التفكيكية الأكثر جدلا - أن النقد كتابة على الكتابة أو نصا جديدا يضاف إلى النص الأصلي، فالقارئ وفقا لبارت يعد منتجا لا مستهلكا صاحب إضافة، ليس مجرد عالية على النص³. هذا يعني لا نهاية في المدلول والمعنى، فليس ثمة قراءة صحيحة أو خاطئة، بل هناك سلسلة لا نهاية لها من القراءات، فكل قراءة تولد قراءة أخرى جديدة إلى ما لا نهاية، في تفسيرات مختلفة أو متناقضة¹. يرى دريدا أن أي نص غير تام، وغير مكتمل بذاته، فليس ثمة بنية أو ظاهرة مكتملة بذاتها، بل إنها دائما تحتاج إلى تتمة أو مكمل أو إضافة. وعلى هذا الأساس لا يمكن الحديث عن الكمال في الشيء، وكأنّ عدم الكمال هي الضمانة الوحيدة للبقاء، لأن الأشياء إذا اكتملت ماتت. فالنص تكمله القراءات المتعددة التي لا تؤدي دورا ثانويا، بل رئيسا في العمل التفكيكي. ومادام الأمر كذلك فليس ثمة بؤرة مركزية يتمحور حولها المعنى،

¹ فكرة "موت المؤلف" death of the author تعني أنه من الخطأ النظر إلى العمل الأدبي على أنه غاية نهائية لمراد الكاتب، فليس من الصواب عند تحليل العمل الأدبي النظر إلى شخصية الكاتب، أو إلى تاريخه وذوقه وأهوائه وغير ذلك من الأمور المتعلقة به، وذلك من منطلق التعددية المفتوحة في تأويل المعنى من ناحية، ومن منطلق أن "البنوية" لا تنتظر إلى أي شيء خارجي عند تحليل العمل الأدبي، فهي ترغب في تحليل عناصره بالنظر إلى العلاقات القائمة بينها داخل "العمل الأدبي" نفسه، وليس بالنظر إلى أية أشياء خارجية، سواء كانت تعود إلى المؤلف أو غيره.

² رولان بارت Roland Barthes (1910-1970) هو الناقد الاجتماعي والأدبي الفرنسي، ساعد لتأسيس البنوية كأحد الحركات الثقافية القيادية للقرن العشرين، كان بارت من دعاة التفكيكية.

³ http://n-alshreef.blogspot.com/2008/06/blog-post_12.html

وإنما هناك لعب بالدوال، وإرجاء ممتد بلا نهاية للدال إلى مدلولات مختلفة باختلاف القراءة، لا تنتهي ولا تتوقف ولا تستقر عند معنى ثابت إلزامي².

يقول ريتشارد رورتي: الدور المهم المفيد الذي تلعبه النزعة التفكيكية في الدراسات الأدبية، ذلك الدور الذي يسهم في تحريرنا من فكرة "تفسير النص تفسيراً صحيحاً"³. إن القراءة التفكيكية التي سماها نيتشه⁴ (Nietzsche) (الهدم) تقوم على التقويض والهدم لكل ما هو ثابت، وقلب المعادلات والثنائيات، والتحرك نحو المناطق التي لا يلتفت إليها النقاد عادة⁵. هذه المنهجية في القراءة، لا تغيب التأثير بالمدرسة الفرويدية⁶ Freud التي تبحث عن أدق الدوال في النص للوصول إلى خيبة نفسية تدخل منها إلى الكشف عن الشخصية المبدعة. إن الغرض الفرويدي كشف نفسي، أما الغرض التفكيكي فهو بحث عن لانهائية القراءة، وفتح النص أمام تعددية قرائية لا تعلق مدلوله بل تجعله مشرعاً، حتى وإن اضطرت إلى تقويض مداخله حتى تضمن عدم انغلاق القراءة⁷.

هذا وقبل الختم نجمل ملامح القراءة التفكيكية في أمور:

1. الوصول إلى نتائج مناقضة لما هو سائد.
2. النزوع نحو استخدام مفهومات ومقولات إجرائية غير محسومة، وغير محدودة.

¹ حمودة، عبد العزيز، (1998)، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، رقم 232، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 326

² نفس المصدر، ص 291 - 292.

³ http://n-alshreef.blogspot.com/2008/06/blog-post_12.html

⁴ نيتشه فيلسوف ألماني (1900) الذي بشر بـ"الإنسان الأعلى".

⁵ http://n-alshreef.blogspot.com/2008/06/blog-post_12.html

⁶ سغمند فرويد Sigmund Freud طبيب أمراض عصبية نمساوي (1939)، ومؤسس طريقة التحليل النفسي.

⁷ Sivaprasad, PP 63-64

3. قراءة مؤقتة في انتظار قراءة قادمة، أو عود لانتهائي من القراءات القادمة¹.

الخاتمة

والحق أن التفكيكية سعي فكري لتقويض جميع الموروثات الفكرية والفلسفية والدينية والسياسية التي ظلت أسرة للفكر الغربي زمن العصور المظلمة، وإحالة أفكار جديدة مبتورة عن كل ما هو تراثي ميتافيزيقي مركزي في الرؤية الموروثة. إن دريدا Derrida يرفض الفكرة الغربية التي تمجد الصوت على الكتابة، أو الحضور على الغياب. الكتابة تجعل أفكار الكاتب أكثر تعرضاً للفحص والعناية، لذلك جعل دريدا لها القدر الأعلى، وقلب المعادلة لتستحوذ على مرتبة الصوت، وتصير هي الأساس، وبهذا يغيب الصوت، صوت المؤلف، لتعلن التفكيكية سلطة القراءة، وبالتالي تعلن ميلاد القارئ. لقد رفض جاك دريدا ميتافيزيقا الحضور، وتبنى بحماسة مبدأ الإرجاء، وتحول اللغة إلى مجرد دوال أخرى لا يمكن معها تثبيت دلالة معينة، ولهذا أعطى الأفضلية للكتابة على الكلام. والتفكيكية لا تعترف بشيء اسمه كتاب، بل بالنصوص فقط. فقد كان النقد، بالمعنى التقليدي، تطبيقاً لنموذج يرمي إلى فهم العمل الأدبي، وربما يكون هذا النموذج فلسفياً أو أخلاقياً أو دينياً أو لسانياً. فالتفكيك لا يمنح الناقد أية نماذج، ولا يطبق أي أنموذج على النصوص الأدبية، بل يدمر جميع النماذج الموجودة، ولهذا تسبب الكتابة التفكيكية حيرة كبيرة. فعلى العكس من النقد البنيوي لا يؤمن النقد التفكيكي بوجود نسق يمكن فهمه². ونلاحظ هنا أن التفكيك ينبذ الميتافيزيقا والفلسفة واللسانيات والبنيوية.

وبناء على ما سبق، لقد تغير فهمنا للغة، فما مصير النقد؟ يبدأ الجواب عن هذا السؤال بافتراض أن الأدب هو شكل من أشكال الكتابة، وإن القصيدة أو

¹ السيد، غسان، التفكيكية والنقد العربي الحديث، مجلة الموقف الأدبي، العدد 426، تشرين الأول، 2006 م.

² <http://www.wata.cc/forums/showthread.php?t=49076>

القصة أو أي عمل أدبي هو بنية آثار. أما النقد، الذي يعرف بأنه بحث في كلمة، وسطر، ونص، أو أي شيء يحرك الذهن من نقطة إدراك حسي معينة إلى عوالم البحث بمعنية دافع قوي للتأويل. لقد جرى انتقادات للتفكيكية، في عالم اللغة الإنجليزية، ضمن منظرين متباعدين جدا: في منظور الفلسفة التحليلية، وضمن منظور ماركسي. افتتح الأول جون م. إيليس¹ John Ellis الذي يسعى لكشف التناقضات المنطقية (الشكلية) ونقاط الضعف التجريبية للفلسفة الدريدية، والثاني كُتاب مثل تري إجلتون² Terry Eagleton الذين يستعيدون الحجج آخذين على التفكيكية كونها انعزلت عن الممارسة السياسية والعلوم الاجتماعية³. إن كثيرا من النقاد العرب المعاصرين يعتمدون على التفكيكية في قراءة نصوصهم الشعرية والسردية. ومن أشهر ممثليها في العالم العربي: عبد الله العذامي (السعودية)، وكمال أبو ديب (سوريا)، وعبد الملك مرتاض (الجزائر)⁴. سيتبع هذا الكاتب تطور مدرسة التفكيكية في العالم العربي بدراسة خاصة في المستقبل القريب، إن شاء الله.

المصادر والمراجع

1. أبو هيف، عبد الله، (2000)، "النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد"، دمشق: اتحاد الكتاب العرب
2. جيمسون، فريديك، (1972)، *سجن اللغة*، برنستون: مطبعة جامعة برنستون
3. حمودة، عبد العزيز، (1998)، *المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك*، سلسلة عالم المعرفة، رقم 232، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
4. زيماء، بيير ف.، (1996)، *La Déconstruction: Une critique* (التفكيكية: دراسة نقدية)، تعريب: أسامة الحاج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

¹ جون إيليس John Ellis أستاذ الألمانية وعميد قسم البكالوريوس في جامعة كاليفورنيا بسانتا كروس في أمريكا.

² تري إجلتون Terry Eagleton (و.1943م) ناقد ومنظر أدبي بريطاني، أستاذ بقسم الإنجليزية في جامعة نورتر دام في إنجلترا.

³ زيماء، بيير ف.، ص: 163-164

⁴ عزام، محمد، ص: 10

5. السيد، غسان، **التفكيكية والنقد العربي الحديث**، مجلة الموقف الأدبي، العدد 426، تشرين الأول، 2006 م
6. سيلدن، رامن، (1996)، **النظرية الأدبية المعاصرة**، ترجمة سعيد الغانمي، ط 1، المغرب: دار فارس للنشر والتوزيع
7. عبد الرحمن بن إسماعيل السماعيل (تحرير)، **الغذامي الناقد: قراءات في مشروع الغذامي النقدي**، كتاب الرياض، عدد 97-98، ديسمبر 2001
8. عزام، محمد، (2003)، **تحليل الخطاب في ضوء المناهج النقدية المعاصرة**، دمشق: اتحاد الكتاب العرب
9. عناني، محمد، (1997)، **المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنجليزي/عربي**، ط 2، لونجمان: الشركة المصرية العالمية للنشر
10. غذامي، عبد الله، (2006)، **الخطيئة والتفكير من البنيوية إلى التشريحية**، ط 6، المغرب: المركز الثقافي العربي
11. المسيري، عبد الوهاب، (1999)، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - نموذج تفسيري جديد**، المجلد الخامس، ط 1، مصر: دار الشروق
12. Achuthan، M.، (2006)، **Paschathya Sahithya Darshanam**، Ed 2، Kottayam: DC Books
13. Anandan، K.N.، (2003)، **Bhashashastratile Chomskian Viplavam**، Thiruvananthapuram: Bhasha Institute
14. Cuddon، JA، (1999)، **Literary Terms and Literary Theory**، London: Penguin Books
15. Jeorge، CJ (Ed.)، (1996)، **Adhunikandara Sahitya Sameepanangal**، Thrissur: Bookworm
16. Pokker، P. K.، (2002)، **Derrida: Apanirmanathinte Pravachakan**، Ed 2، Thiruvananthapuram: Kerala Bhasha Institute
17. Raveendran، P.P.، (1999)، **Adhunikandaram: Vicharam، Vayana**، Current Books، Thrissur.
18. Royle، Nicholas، (2000)، **deconstructions**، New York: Palgrave
19. Ryan، Michaael، (2007)، **Literary Theory: a practical introduction**، Ed 2، USA: Blackwell Publishing
20. Shivaprasad، (2009)، **Navasahithya Darshanangal: Sidhanthavum Prayogavum**، Thiruvananthapuram: India Books
21. http://al-hawza.com/include/makal/1_19/2.shtml
22. <http://manahijnaqdia.3oloum.org/montada-f1/topic-t4.htm>
23. http://n-alshreef.blogspot.com/2008/06/blog-post_12.html
24. <http://www.alfaseeh.com/vb/showthread.php?t=25105>
25. <http://www.arabworldbooks.com/ArabicLiterature/Deconstruction.htm>
26. <http://www.wata.cc/forums/showthread.php?t=49076>